طبيب الإقليم

للقصصي الروسي إيفان تورجنيف
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

فى بعض أيام الخريف أصبت ببرد شديد أثناء عودتى من جزء بعيد من الاقليم الذى أقيم به . وكان من حسن حظى أن الحى لم تتمكن منى إلا بعد وصولى إلى فندق بالمدينة فأرسلت من يستدعى الطبيب

وبعد نصف ساعة جاء الطبيب وهو نحيل الجسم أسود الشعر متوسط الطول فوصف لى الدواء المألوف ودفعت إليه ورقة مالية ذات خمسة روبلات فدسها فى جيبه وهم بالقيام ، وحسبته سينصرف ولكن لا أعرف ماذا حدث فجعله يستأنف الجلوس ويعود إلى التحدث ، فاغتبطت بذلك لأنى عانيت فى الليلة السالفة آلام الأرق وكنت بحاجة إلى مثل هذا الحديث

وجىء بالشاى وأخذ الطبيب يتكلم فى حرية ، وهو رجل ذكى يعرب عن نفسه فى شجاعة ، وفى حديثه من الفكاهة الشىء الكثير

وفى العالم أشياء غريبة ، فقد تعاشر أحد الناس مدة طويلة دون أن تطلعه مرة واحدة فى أحاديثك معه على دخيلة نفسك ، بينا تجد رجلاً آخر لم يكد يتصل بينك وبينه سبب التعارف ولكن كلا منكما قد أخذ يفضى إلى الآخر بسره كاملا كأنه أمام قسيس الاعتراف

ولست أعرف كيف اكتسبت ثقة هذا الصديق الجديد الذى أخذ بغير مقدمة يطلعنى على أسراره . وسأعيد إلى القارىء واحدة من سيره محاولا صياغتها فى أقرب الأساليب إلى أسلوبه . قال وقد بدأ يسرد القصة بصوت خافت مضطرب (وهذه هى النتيجة العادية لتعاطى سعوط بيريزوف غير مخلوط بمادة أخرى تخفف من حدته)

— قال : « وربما كنت لاتعرف القاضى (بافال لوكونتش) ألا تعرفه ؟ على حد سواء ! لقد كنت أزوره بمنزله وكان يلعب معى بالورق وهو مولع بهذا النوع من اللعب وعلى حين فجأة » وقد نطق الطبيب لفظ فجأة بصوت عال وتغيرت لهجته بعد ذلك إذ يقول :

« وعلى حين فجأة جاء التابع وقال ان رجلا يسأل عنى . قلت : ما الذى يريد ؟ فأجابنى تابعى : لقد جاء بخطاب إليك ويظهر أنه من مريض . قلت : ناولنى الخطاب . فناولنيه ، وقلت : لقد صدقت فراستك فالخطاب من أرملة عجوز تقول ان ابنتها تحتضر وتتعجلنى إلى الذهاب . وكانت العربة التى أرسلتها فى انتظارى ... ولكن المسافة بيننا وبينها تربو على العشرين ميلا ، وكنا فى منتصف الليل والطريق من أسوأ الطرق . ولما كانت هذه الأرملة

فقيرة فالطبيب لاينتظر على هذه المشقة أجراً يزيد على الروبلين . وقد لايبلغ الأجر هـذا القدر . ولـكن الواجب فى نظر الطبيب أهم من كل شئ

وخرجت فوجدت العربة بالباب ووجدت السائق جالساً فى مكانه وقبعته على رأسه لم يرفعها لاستقبالى ، ولم يظهر لى أى مظهر للاحترام ، فقلت فى نفسى : هـذا حسن جداً ، فانه يدل على أن القوم أغنياء ... أراك تبتسم ! ولـكن فقيراً مثلى يجب أن يضع كل ملاحظاته فى موضع الاعتبار ، فاذا كان السائق جالساً كأنه أمير ، وإذا كان لايحييك عند ركوب العربة بلمس قبعته كان لك أن تطمئن على أن الأجر لن يقل عن ستة روبلات

ركبت العربة ومس العقاقير التى توقعت أنها لازمة . ولا أطيل عليك فى وصف الطريق وأوحاله ومستنقعاته ، ولـكننى أقول إننى وصلت فى النهاية فوجدت المنزل حقيراً . وكان النور ظاهراً من وراء النافذة دلالة على أنهم كانوا فى انتظارى . وتلقتنى امرأة عجوز تبدو عليها كل علائم الاحترام وقالت : أنقذها فانها تحتضر

قلت : لاتخافى . أين هى المريضة ؟

فقالت : اتبعنى . ورأيت فى ركن من الغرفة فتاة فى العشرين فاقدة الوعى وحرارتها فى درجة الاحتراق وهى تتنفس فى مشقة وبجانبها أختاها تبكيان

وقيل لى إنهـا بالأمس كانت فى صحة جيدة ، وكانت قوية الشهية للطعام ، وفى الصباح شكت من وجع فى رأسها ، وفى المساء صارت فجأة إلى الحالة التى تراها

قلت : لاداعي للخوف

وأنت فقد تعلم أن مثل هذا القول من واجب الأطباء . ودنوت من الفراش فوضعت على رأس الفتاة « لبخة » من الخردل ونظرت إلى وجهها ، فأى وجه رأيت ؟ إنى لم أر من قبل مثل هذا الجمال وليس فى العالم قسمات كهذه القسمات ، ولا نظرات كنظرات هاتين العينين . وتحسنت حالتها بحمد الله فتصبب العرق من جبينها وعاد إليها وعيها فالتفتت حولها وابتسمت ثم غطت وجهها بيديها فالت أختاها تسألانها عن صحتها ، فأجابت إنها بخير . ثم أدركها النعاس

قلت : هـذه علامة حسنة ، ولـكن يجب أن تترك المريضة وحدها . وخرجنا جميعاً من الغرفة نمشى على أطراف الأنامل ، إلا خادماً تركناها مع المريضة

وكانت الغرفة الأخرى هى غرفة المائدة . وكان فيها على المنضـدة وعاء الشاى وزجاجة « الروم » فقدموا إلىّ الشاى . وطلبوا أن أبيت بالمنزل هـذه الليلة فوافقت . وهبنى لم أفعل فإلى أين كنت أذهب فى مثل هذه الساعة ؟

وظلت العجوز تكرر سؤالى عن حالة المريضة وأكرر جوابى بأنها ستعيش . وأخيراً قلت لها إنها هى أيضاً بحاجة إلى الراحة . وطلبت إليها أن تذهب لتنام ، وكنا إذ ذاك فى الساعة الثانية صباحاً فقالت:

ولـكن هل توقظني إذا حدث شئ ؟

قلت : نعم

فذهبت العجوز وبنتاها بعد أن هيأت لى فراشاً فى غرفة المائدة ، ولـكنى لم أستطع النوم لأنى كنت فى نهاية التعب ، وكنت لا أستطيع منع نفسى عن التفكير فى المريضـة ، وأخيراً عجزت عن مقاومة ميلى فقمت لـكى أراها

قمت إلى غرفتها ففتحت الباب برفق ، وما كان أشد خفوق قلبى ! ... ونظرت فرأيت الخادم نائمة

مفتوحة الفم وهى تغطُّ ... تلك التعسة الملعونة !
أما الفتاة فكانت متجهة الوجه إلىّ مبسوطة الذراعين ... تلك المسكينة !

دنوت منها ففتحت عينيها فجأة ورأتنى فانزعجت وقالت : من أنت ؟ من أنت ؟

قلت : لاتخافى ياسيدتى فأنا الطبيب . فحدقت فى وجهى وقالت : أأنت طبيب ؟

قلت : نعم وقد استدعتنى أمك من المدينة ... لا بأس عليك ، إنك الآن أحسن مما كنت عليه منذ ساعتين ؛ وبعد يوم أو يومين تستطيعين القيام والمشى

فقالت : لا أريد أن أموت ! لا أريد أن أموت . أنقذنى !

وانتابتها حالة الحمى فجسست نبضها وقلت : هدئى من روعك . فنظرت إلىّ ثم تناولت يدى وقالت : سأخبرك لماذا لا أريد أن أموت ... نحن وحدنا هنا . لا تخبر أحداً ... لا تخبر أى أحد وأنصت ، فزدت دنواً منها ، وهمست فى أذنى وشعرها يلمس خدى . وأنا أعترف بأن دواراً كان يعترينى إذ ذاك ، وكانت تتكلم وأنا لا أفهم لأنها محمومة . وكأنها كانت تنطق بغير اللغة الروسية . ثم انتهت من همسها وأشارت إلىّ بأصبعها إشارة تحذير وقالت : « إياك أن تخبر أى أحد »

فطمأنتها وأسقيتها الدواء ثم أيقظت الخادمة وخرجت

وهنا تناول الطبيب شيئاً من السعوط وتبلد من تأثيره وقال : وفى اليوم التالى لم تتحسن صحة المريضة خلافاً لما كنت أتوقع . وفكرت ثم فكرت ، فقررت أن أبقى بهذا المنزل ولو أن سائر مرضاى فى انتظارى

وذلك لسببين : أحدهما أن هذه المريضة كانت فى خطر جدى ، والثانى ـ ولا بد لي من الاعتراف به ـ أننى شعرت بالميل إليها ، لا بل إلى الأسرة كلها . ومع أنها أسرة فقيرة فهي مثقفة مهذبة . وقد كان والد الفتيات أديباً مؤلفاً ، ومات فقيراً بالطبع ولكنه ترك بناته مثقفات متعلمات ولعل هذا السبب (أو لعل سبباً آخر) هو باعث ميلى إلى الأسرة . ولكنى أؤكد أنهم عاملونى كما لو كنت فرداً من أسرتهم

وفى الوقت نفسه كانت حالة الطرق تزداد سوءاً على سوء ، فما كنت أستطيع العودة لو أردت . وكذلك كانت حالة الفتاة لا تزداد إلا سوءاً ؛ ومضت على هذه الحالة أيام

ثم سكت الطبيب لحظة وبدت عليه علائم التفكير واستأنف القول فقال : ولست أعرف كيف أخبرك ...

وهنا تناول مقداراً آخر من السعوط وشرب جرعة من الشاى وقال : سأخبرك بغير مقدمة ... ولكن ماذا أقول ... ؟ إن المريضة أحبتنى ... لا أعنى أنها هى التى أحبتنى ... كيف أقول ؟

واختضب وجه الطبيب احمراراً وقال : لا أريد أن أقول إنها أحبتنى ، فعلى الرجل ألا يتغالى فى تقدير نفسه . وهى متعلمة واسعة الاطلاع ، وأنا لا أكاد أذكر ماتعلمته من اللغة اللاتينية ، وليس لى ما أستطيع أن أباهى به ؛ ولكن الله له الحمد لم يخلقنى أبله فلست أرى فى الواحد أنه اثنان ولا فى الأسود أنه أبيض . ولهذا استطعت أن أتبين أن ألكسندرا أندريفنا — وهذا هو اسم المريضة — لا تحبنى ، بل هى تشعر بصداقة وود — أعني بميل واحترام — وإن كانت هى نفسها تخطئ فى تقدير شعورها الحقيقى نحوى

وكان الطبيب يلقى الجمل الأخيرة فى سرعة شديدة

وارتباك ظاهر . ثم شرب بقية الشاى وقال بصوت أقرب إلى الهدوء من الصوت الذى كان يتكلم به ، قال : وكانت حالة المريضة تزداد سوءاً على سوء . وأنت أيها الصديق قد لا تستطيع أن تفهم الأدوار التى يمر بها الأطباء خصوصاً عند ما يتصور الطبيب أنه فقد سيطرته على المرضى . فى هذه الحالة يفقد ثقته بنفسه ويجبن ويتصور أنه نسى كل شىء عرفه ويخال أن المريض فقد ثقته به ، وأن الناس يرتابون فيه ويتهامسون عليه . والناس متى رأوا مريضاً اعتقدوا أنه لا بد له من دواء ، وانتظروا من الطبيب أن يأتى بدوائه فإن لم يستطعه عدوا ذلك دليلا على جهله ؛ ويعرف الطبيب عنهم هذه الحقيقة فيتشبث بدواء ، ثم يعدل عنه إلى غيره ، ثم يتناول كتاباً من كتب الطب فيختار دواء ثالثاً ، وقد تكون المصادفة وحدها هى مبنى هذا الاختيار ؛ وإلى هذا الحد يكون المريض قد وصل إلى درجة الاحتضار ، ويخطر ببال الطبيب أن طبيباً آخر قد ينقذ مريضه فينصح بالإستشارة الطبية . ولو اطلعت على نفس الطبيب عند ذلك لعرفت أنه إنما يود أن يشرك معه أطباء آخرين حتى لا ينفرد بتحمل المسئولية عند الوفاة . على أنه فى الواقع ليس ثمت مايدعو إلى الارتباك فإن الموت يكون مقضياً به على المريض ، وليس الوزر وزر الطبيب فقد أدّى مايجب عليه بعمله وفق القواعد التى تعلمها . ولكن الصعوبة الحقيقية التى يعانيها الطبيب هى شعوره بالعجز عن تأدية خدمة لمريضه ، وهذه هى الحالة التى عانيتها مع ألكسندرا أندريفنا ، فإن الأسرة نسيت أنها فى خطر . وأنا كذلك أخذت أؤكد أن الخطر قد زال ، ولكن قلبى كان يشعر بعبء ثقيل . ومما زاد فى تعبى أن حالة الطرق ساءت جداً فكان السائق كلما ذهب بالعربة لشراء الدواء لم يعد إلا بعد بضعة أيام

ولم أترك قط غرفة المريضة إلا للضرورة ، وكنت فى ملازمتى إياها أقص عليها القصص المسلية ، أو ألاعبها لعبة الورق وأسهر بجانب سريرها فى الليل ؛ وكانت أمها تشكرنى والدموع تتحدر من عينيها فأقول فى نفسى : إننى لا أستحق شكرها لأنى أعانى هذه المشقة بدافع الحب . وقد بلغ من ميل الفتاة إلىّ أنها فى كثير من الأحيان لا تسمح بوجود أحد غيرى فى الغرفة . وكانت تكثر فى حديثها معى من إلقاء الأسئلة علىّ فتسألنى مثلاً : أين تعلمت وأين أعيش ؟ وتسألنى عن أحوال أسرتى ، وعمن اعتدت أن أقابلهم . وكنت أشعر بأنه ينبغى لها ألا تكثر من الكلام . ولكنى من جهة أخرى لم أكن قادراً على حمل نفسى على منعها

وكنت أحياناً أضع رأسى بين يدى وأفكر فى الحماقة التى ارتكبتها ، فتأتى الفتاة وتمسك بيدى وتمنحنى نظرة طويلة . وكنت أحس حرارة يديها الدالة على الحمى وألمح فى عينيها علائم الملل من مرضها الشديد ؛ وكانت تصفنى بأنى رجل طيب وتقول إننى أفضل من كل جيرانها . وتأسف لأنها لم تعرفنى من زمن قديم ، فكنت أشكرها وأقول : إنك لا تعرفين مقدار ما اكتسبته وإنك سوف تشفين

ولا بد من إخبارك بأن هذه الأسرة كانت قليلة الاتصال بالجيران لأن جيرانها لم يكونوا فى مستواها من حيث الغنى ، ولأن عزة هذه الأسرة كانت تمنعها عن الاتصال بالأغنياء .

ولقد كنت أشعر حين تمد يدها لتأخذ من يدى الدواء وحين تستعين بى على النهوض ، وحين تنظر إلىّ نظراتها الطويلة — كنت أشعر عند ذلك بأن قلبى يكاد أن يتمزق ؛ وكانت حالتها تزداد سوءاً فى اطراد مستمر . وكنت أرى أنها ميتة لا محالة

وصدقني إذا قلت إنني وددت لو سبقتها إلى القبر .

وكانت أمها وأختاها ينظرن إلىّ ويراقبنني وقد بدأت ثقتهن بي تتزعزع . وخار عزمي فلم أستقر على رأى

وفى إحدى الليالى كانت الخادم نائمة فى الغرفة وكانت تغط غطيطها المعتاد . ونظرت إلى الفتاة فلم أجد جمالها قد قل على الرغم من شدة ذبولها وهزالها ؛ وكانت وطأة الحمى شديدة عليها فى تلك الليلة فظلت تتقلب على الفراش إلى منتصف الليل ثم ظهرت كأنها نائمة . وكان المصباح موقداً فى ركن من الغرفة تحت الأيقونة المقدسة ، فجلست هناك مطرق الرأس ، وأدركني النعاس لحظة ثم استيقظت فجأة عند ما شعرت بيد تلمسني . ونظرت فرأيت ألكسندرا أندريفنا ، وقد تقلصت شفتاها والتهب خداها مثل التهاب النار وقالت : هل أموت يا دكتور ؟

قلت : لا سمح الله

فقالت : لا تقل لى إنني سأعيش ، لا تقل كذلك ... أصغ بالله ولا تكتم عنى حقيقة حالى

ثم أسرعت أنفاسها وقالت : إذا كنت أعرف أن موتى قريب فانى سأقص عليك قصتى كلها

قلت : بالله يا ألكسندرا ... فقالت مقاطعة : أصغ إلىّ إنى لم أكن نائمة . ولكنني كنت أنظر إليك مدة طويلة . لقد وثقت بك فأنت طبيب شريف . وأرجوك بكل مقدس فى الحياة أن تخبرنى بالحقيقة هل أنا فى خطر ؟

قلت : ماذا أقول لك يا ألكسندرا ؟

فقالت : أستحلفك ألا تكتم عنى

قلت : لا أكتمك فأنت فى خطر أكيد ، ولكن الله رحيم . فقالت : إننى سأموت . وبدا عليها كأنها مسرورة من لقاء الموت . وأشرقت أسارير وجهها ، فانزعجت وقلت : لا تخافى لا تخافى

قالت : إنني لا أخاف الموت . ثم جلست فجأة وأسندت رأسها إلى ذراعها وقالت : أشكر لك أن صدقتنى وأرحتنى . وإنك عطوف حنون ، إنى أحبك . ثم نظرت إلىّ كنظرة المأخوذ فاضطربت . واستمرت تقول : هل أنت سامع ؟ إنى أحبك .

قلت : ولكن يا ألكسندرا كيف استحق . ؟

فقالت مقاطعة : كلا كلا إنك لم تفهمني . ثم أمسكت بذراعي ووضعت رأسى بين كفيها وقبلتنى

وصدقني لقد كدت أبكى عند ذلك وجثوت تحت قدميها . ودفنت وجهي فى الوسادة ، فلم تتكلم . وكانت تعبث بيدها فى شعرى وأنا أصغى ثم بكت فهدأتها وأخذت أؤكدها ... ولكنى كنت فى الواقع لا أعى ما أقول

ثم قلت إنهم سيستيقظون يا ألكسندرا . يكفى يكفى . فقالت لا أبالى . وإذا استيقظوا فليأتوا ، فإنى لا أهتم ... إنى أموت وماذا تخاف أنت ولماذا تخاف ؟ ارفع رأسك أم لعلك لا تحبنى وأنا المخطئة ... إن كان كذلك فإنى أعتذر إليك

قلت : يا ألكسندرا ، ماهذا الذى تقولين ؟ إنى أحبك يا ألكسندرا . فنظرت إلى عينىّ وفتحت ذراعيها وقالت : إذن فضمني بين ذراعيك

وأخبرك بالحق أنى لم أعرف كيف لم أجن فى هذه الليلة ؟ إن المريضة كادت تقتل نفسها وقد بدت لشدة ما اعتراها من التغير كأنها ليست هى .. وأدركت أنه لولا معرفتها بأنها موشكة على الموت لما فكرت فى أمرى . قل ما تريد ولكن من أصعب الصعوبات أن يشعر الانسان بأنه مقبل على الموت وهو لم يتجاوز العشرين دون أن يعالج الحب ، ذلك هو الأمر الذى دفعها إلى اليأس . فأمسكت بي

ولم ترد أن تتركني ، وهي تقول : « كن رؤوفاً بي . أشفق عليّ . ما الذي تفكر فيه ؟ أنت تعرف أنني سأموت . إنني لو كنت سأبقى على قيد الحياة فاني أخجل . نعم ولكن لماذا أخجل الآن ؟ »

قلت : ولكن من الذي قال إنك ستموتين ؟

فقالت : دع هذا القول فانك تخدعني . إنك لا تعرف كيف تكذب فان وجهك ...

فقلت : إنك ستعيشين يا ألكسندرا ، إنني سأشفيك ، إنني سأطلب من أمك أن تباركنا وسنتزوج ونكون سعيدين

قالت : كلا إنني سأموت ، ولكنني متمسكة بوعدك وإنك وعدتني ... إنك قلت لي ...

ولقد كان خطأ مني أن تسرعت في القول . سألتني عن اسمي الأول ، وكانت قبل ذلك تدعوني كما يدعوني سائر الأسرة بلقب الدكتور ، ولا بد هنا من الاعتراف بأن اسمي (تريفون) ليس من الأسماء السارة فقلت : اسمي تريفون إيفانتش . فهزت رأسها وقالت كلمات باللغة الفرنسية ، وقد كانت هذه الكلمات بالطبع دالة على الاشمئزاز من هذا الاسم ثم ضحكت

وقضيت سائر الليلة معها وكنت أحس بأني أسير بخطوات سريعة نحو الجنون

ولما دخلت غرفتها للمرة الثانية كنا في الصباح بعد تناول الشاي وكدت لا أعرفها فان الموتى عند الدفن أشبه بها من الأحياء ، وإني أقسم لك أني لم أفهم كيف جرت الأمور على هذا المنوال ثلاثة أيام على التوالي ولا أعرف ما الذي كانت تقوله لي بالليل ، وتصور أنني في الليلة التالية كنت أصلي وأدعو الله أن يأخذها إليه

وعلى حين فجأة جاءت الأم وكنت قد أخبرتها في الليلة السالفة بأن الأمل قليل وأن الأفضل استدعاء القسيس

ولما رأت المريضة أمها قالت : « لقد أحسنت إذ جئت فقد تبادلنا الوعد وكلانا يحب الآخر »

قالت الأم : « ما الذي تقول الفتاة ، وماذا تقول أنت يا دكتور ؟ »

فقلت : « إنها تهذي فهي في نوبة الحمى »

قالت الفتاة : « ما هذا ؟ إنك كنت تقول لي غير ذلك منذ لحظة وقد قبلت خاتمي ، لماذا تتظاهر ؟ إن أمي طيبة وسوف تصفح . إنها تدرك أني أموت لا داعي إلى الكذب ... مد إليّ يدك ! »

فوثبت من مكاني وفررت من الغرفة ، وقد أدركت العجوز بالطبع حقيقة ما كان ...

ولا أريد أن أتعبك بالاطالة في هذا الحديث وأنت تدرك أن هذه الذكرى تؤلمني ، وقد ماتت مريضتي في اليوم التالي فيرحمها الله

ثم تنهد وقال : « وقبل موتها طلبت إلى أهلها أن يخرجوا ويتركوني وإياها وحدنا في الغرفة ، وقالت : سامحني ... إنني أنا الملومة .. إن مرضي .. ولكن صدقني إني لم أحب أحداً أكثر مما أحببتك . احتفظ بخاتمي)

ووقف الطبيب ليذهب ثم قال : إنه يكره الذهاب إلى منزله عند ما تكون زوجته مستيقظة لأنها تكثر من تعنيفه ، ولأنه يكره بكاء الأطفال

وقال : « بعد ذلك تزوجت من بنت تاجر ، وأخذت بائنة قدرها سبعة آلاف جنيه واسم زوجتي أكوليتا وهو اسم يتناسب مع اسم تريفون ولكن زوجتي مفقودة الصبر وهي بحمد الله تنام أكثر أوقاتها

ولما سكت الطبيب دعوته إلى أن يلاعبني لعبة الورق فربح مني روبلين وعاد إلى المنزل وهو مسرور بما ربح

عبد اللطيف النشار